صديق

للأستاذ احمد أمين
— ١ —
الأستاذ بكلية الآداب

لي صديق ، اصطلحت عليه الاضداد ، والتفت فيه المتناقضات ، سواء في ذلك خلقه وخلقه وعلمه .

حيي خجول ، يغشى المجلس فيتعثر في مشيته ، ويضطرب في حركته ، ويصادف أول مقعد فيرى نفسه فيه ، ويجلس وقد لف الحياء رأسه ، وغض الخجل طرفه ، وتقدم له القهوة فترتعش يده ، وترتجف أعصابه ، وقد يداري ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ، ولا به اليها حاجة ، وقد يشمل لفافته فيحمله خجله أن يفضها كل حين ، وهي لا تحترق بهذا القدر كل حين ، وقد يهرب من هذا كله فيتحدث الى جليسه ليلهي نفسه وخجله ، ولكن سرعان ماتعاوده الفكرة فيعاود الهرب ، وهكذا دواليك حتى يحين موعد الانصراف ، فيخرج كما دخل ، ويتنفس الصعداء حامدا الله على أنه لم يخر صعقا ، ولم يدركه حينه كربا وقلقا .

من أجل هذا أكره شيء عنده أن يشترك في عزاء أو هناء . ولو يدعى الى وليمة أو يدعو اليها ، يشعر أنه عبء ثقيل على الناس وأنهم عبء عليه ، يحب العزلة لا كرها للناس ولكن ستراً لنفسه ، وأنساً بالوحدة وهي تضايقه وتريبه .

ثم هو — مع هذا — جريء الى الوقاحة ، يخطب فلا يهاب ، ويتكلم في مسألة علمية فلا ينضب ماؤه ، ولا يدنى جبينه ، ويعرض عليه الأمر في جمع حافل فيدلي برأيه في غير هيبة ولا وجل ، وقد تبلغ به الجرأة أن يجرح حسهم ، ويدمي شعورهم فلا يأبه لذلك ، ويرسل نفسه على سجيتها فلا يتحفظ ولا يتحرز .

يحكم من يراه في حالته الأولى أنه أحيا من عذراء ، ومن يراه في الثانية أنه أوقح من ذئب وأسلب من صخر ، ومن يراه فيهما أنه شجاع القلب ، جبان الوجه .

* * *

وهو طموح تنوع ، نابه خامل ، يرمي بهمته الى أبعد مرمى ، وينزع نفسه الى أسنى المراتب ، وتحفزه الى أبعد المدارك ، فيوفر على ذلك همه ، ويجمع له نفسه ، ويتحمل فيه أشق العناء ، وأكبر البلاء ، ولا يسأم ولا يضجر . وكلما نال منزلة علما ، وطلب اسمى منها . ويباهو في جده وكده ، وحزمه وعزمه أذعان به طائف من التصوف ، فاحتقر الدنيا وشؤونها ، والنعيم والؤس والشقاء والهناء وسمع قول المتنبي :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد الا السيف والطعنة النجلا
وتركك في الدنيا دويا كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر

فهزيء به وسخر منه ، واستوطأ مهاد الخمول ورضي من زمانه بما قسم له ، وبينا يأمل أن يكون أشهر من قمر ، ومن نار على علم ، يسافر في الشرق والغرب ذكره ، ويطوى الراحل اسمه أنفا به يخجل يوم ينشر اسمه في صحيفة ، ويذوب حين يشار اليه في محفل ويردد مع الصوفية قولهم « دفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » يعجب من يراه مجدا خاملا ، ومعرفة نكرة ، وعاملا مغمورا .

وأغرب مافيه أنه متكبر يتجاوز قدره ، ويعدو طوره . ومتواضع ينخفض جناحه ، وتتضاءل نفسه . يتكبر حيث يصغر الكبراء . ويتصاغر حيث يكبر الصغراء . يتأله على العظماء حتى تظن أنه نسل الأكاسرة ووارث الجبابرة ويجالس الفقير المسكين يؤاكله ويستذله ، هو تيه أمام الأغنياء ، وبشاشة لدى الفقراء لاتلين قناته لكبير ، ويحزم أنفه الصغير .

يحب الناس جملة ، ويكرههم جملة . يدعوه الحب أن يندمج فيهم ، ويدعوه الكره أن ينفر منهم فحار في أمره ، فامتزج الحب بالكره ، فاستوان بهم في غير احتقار .

صحيح الجسم مريضه . ليس فيه موضع ضعف ولكن كذلك ليس فيه موضع قوة . يشكو المرض فيحار في شأنه الطبيب فيحنق على الاطباء ويرميهم ، بالعجز وما العاجز الا جسمه لم يستطع أن ينوء بنفسه .

كذلك كان رأسه . مضطرب . مرتبك . كأنه مخزن مهوش ، أو دكان مبعثر وضع فيه النعل القديم بجانب الحجر الكريم ، يؤمن بقول الفقهاء : القديم على قدمه ، ثم يدعو الى التجديد . ويخلق فيه مذهب أهل السنة بمذهب أهل النشوء والارتقاء ، ومذهب الاختيار بمذهب الجبر ، وحب الغني بمذهب أبي ذر وتجتمع في مكتبته كتب خطية قديمة قد أكلتها الارضة ، ونسج الزمان عليها خيوطه ، وأحدث الكتب الأوروبية فكرا وطبعا وتجليدا . ولكل من هذين ظل في عقله ، وأثر في رأسه . يسره تأبط شرا في بداوته وسلكته « وجوته » في حضارته وامارته ويؤمن لشاعرية هذا وذاك . يسمع الى الملحدين فيصغي اليهم . والى المؤمنين فيحن شوقا لذكراهم يهمل في صلاته ويحافظ على صومه . ان ألحد فكره لم تطاوعه طبيعته ، وان كفر عقله آمن قلبه . ومن أصدقائه الكبير والزاهد ، والفاجر الداعر والعابد . وكلهم على اختلاف مذاهبهم يصفه بأنه يجيد الاصغاء كما يجيد البليغ الكلام

* * *

سرت معه سيرة من جنسه ، فأحببته وكرهته ، ونفرت منه ورحته ، وكنت آنس به وأستوحش منه ، يبعد عني فأتوق اليه ، ويطول بقائي معه فأتبرم به .

وأخيرا ، لم يقو جسمه على هذه الأضداد مؤتلفة ، والمتناقضات مجتمعة . فعاجله الشيب في شبابه ، ونكس ظهره في ربيع عمره ،